للكثيرين. ونادرًا ما يتحدث من خاضوا غمارها عن تفاصيلها. وما يبقى هو الانطباعات العميقة: تداخل الخوف والأمل، والإدراك العميق للعمل من أجل شعبٍ كان ينتظر، في كل بيت، نور الجزائر الحرة.

كانت لكل مهمة ثقلها الهائل، كقسمٍ صامت. وبالنظر إلى الماضي، فإن الوجوه هي ما يتبادر إلى الذهن قبل كل شيء. وجوه رفاق سقطوا في ريعان شبابهم، ووجوه أولئك الذين دوّت ضحكاتهم رغم الخطر. وعلى مرّ السنين، تبقى حقيقة واحدة مؤكدة: لقد اختاروا الطريق الأقصر، الطريق الذي لم يعد بمجدٍ ولا بامتيازات، بل بشرف الخدمة فقط.

عمار طرابلسي، ابن الونزة، الذي أصبح طياراً في الثورة.

من حي الطاحونة إلى سماء الحرية، وجوهٌ لا تُنسى في الطفولة. شخصياتٌ مألوفة، ونظراتٌ جادة، وحضورٌ هادئ يمرّ بصمتٍ عبر سنواتنا الأولى، تاركًا بصمةً لا تُمحى في ذاكرتنا. كان عمار طرابلسي واحدًا منهم.

كان من أولئك الأطفال الذين تتعرف عليهم في القرية حتى قبل أن تعرف اسمهم: مشية سريعة، عيون لامعة، وهيبة هادئة لا تُكتسب من الكتب.

وُلد عمار عام 1940 في الونزة، حيث نشأ عند سفح الجبل المُطل على المنجم، حيث كانت الأرض تهتز أحيانًا من الانفجارات، وتفوح رائحة الحديد ممزوجة بغبار الرمال. في سن مبكرة، أثبت له القدر أنه لم يُكتب له طفولة سهلة.

حي الطاحونة ودراجة القدر النارية:

وُلدتُ في حيٍّ يُدعى البياضة. كانت عبارةً عن مجموعةٍ من البيوت الطينية الصغيرة ذات الأسقف المنخفضة والجدران المُحترقة من الشمس. هناك، تشبّثت الحياة بالأرض بعناد. كان الرجال يحملون الماء على أكتافهم، أو على الحمير، أو، لمن حالفهم الحظ، على عربةٍ، تلك الآلة التي كنا نسميها «الكريطة»، والتي كانت تُستخدم أيضًا كوسيلة نقلنا خلال العيد. كان الرجال ينزلون إلى المناجم، مُخاطرين بحياتهم من أجل فتاتٍ من الطعام، وكان الأطفال، حفاةً، يركضون في الغبار كما لو كان غبارهم.

في المساء، كان الدخان يتصاعد من المواقد إلى السماء كدعاء، وفي هذه البساطة القاسية، تعلّمنا أن نُحب الحياة دون تظاهرٍ أو وعود. في هذه البيئة نشأ

طرابلسي عمار، الشاب الذي سيتجاوز مصيره كل ما يُمكن لأي شخصٍ أن يتخيله.

بالنسبة لي كصبي صغير، كان ذلك الشاب الأنيق على دراجة نارية، الذي كان يجوب الشوارع الأوروبية للمدينة قبل أن يركن دراجته في مرآب منزلنا، في حي الطاحونة، وتحديدًا في المكان المسمى «مغازا»، قبل أن يعود إلى منزل والديه الذي يقع على مرمى حجر من منزلنا.

على بُعد بضع عشرات من الأمتار من منزلنا، كان ملعبنا عبارة عن رقعة أرض صغيرة مغبرة تتناثر عليها شظايا الصخور، ملعب كرة قدم بدائي غير مُعلّم. كانت تربته ذات اللون البني المصفرّ تُشبه لون خام الحديد، وهو نفس اللون الذي تُضفيه الجبال على العالم وهي تُراقب القرية بحنان أمٍّ حكيمة. هذا الملعب، الذي كنا نُسمّيه «لكحل»، كان المكان الذي